جامعة بشار

تيار الماء العذب

محمد فايز

يقول أحد المفكرين: << **ما أسهل القول وأصعب العمل وما أسهل العمل وأصعب الفهم** >>

عبقرية العقل تتجلى في القدرة على التفكير ثم الفهم ثم الإبداع, ويتمايز الأشخاص عبر الزمن والمكان وفق هذه المعادلة في العلم والسلوك والأثر, وتتفوق المجتمعات على بعضها البعض بقدر عنايتها بالعقول والمواهب وتلك هي معاناة العقل المسلم المعاصر الذي يرزح تحت مشكلات ذاتية عائقة عن بناء الحضارة والتقدم ترتب آثارا خطيرة في مختلف أوجه النشاط الإنساني للأمة مما يتطلب إعادة تحديد إستراتيجية التفكير وفق المحاور التالية:

1- انبجست العين فهرع أهل القرية:

منذ زوال الخلافة الراشدة, نشأت داخل المجتمع الإسلامي مدارس فكرية متعددة تعتني بتفسير القرآن الكريم وتأويل نصوصه واستنباط أحكامه الفقهية لتتناسب مع الواقع واحتياجات المسلم المتجددة ، فكانت مدرسة الأثر وأخرى للرأي ، والظاهرية والباطنية , والبيانية والفلسفية ، هذه التفاسير المختلفة اقترب بعضها من فهم الصحابة فكانت صائبة في جل آرائها الفقهية , وابتعد بعضها الآخر إلى حد الابتداع والافتراء على الله بغير علم , على اثر ذلك تقسم المجتمع الإسلامي إلى مذاهب و جماعات ،وأسست كل جماعة لنفسها أصولها العقائدية والفقهية والفكرية, وأدى التراكم المعرفي المتناقض أحيانا لهذه المدارس عبر القرون إلى حالة من الثراء الفقهي والعلمي الذي حضيت به الأمة ، لكن من جهة ثانية جعلت المسلم المعاصر في حيرة وقلق من حالة الاستقطاب الفكري والمذهبي تجلت آثارها في ظهور حركات وجماعات بين جامدة ومتطرفة ومعتدلة ومنحرفة , والى ذلك يشير الشيخ محمد الغزالي بقوله :" إن المدافعين عن الإسلام اليوم لا تنقصهم الحماسة والإخلاص ولكن تنقصهم الخبرة والتجربة والفقه السليم للكتاب والسنة " , وبعيدا عن الأسباب والخلفيات العلمية التي أسست تلك الخلافات فان أشكال التفاسير والتأويلات التي حاولت فهم النص القرآني أو الحديث النبوي أنتجت ظواهر سلوكية متناقضة بين الجماعات مثل مفهوم لباس السنة عند الرجل والمرأة , أو مفاهيم الجهاد الخاطئ التي أدت إلى العدوان على خلق الله , أو معايير الصلاح بين الناس. هنا نطرح السؤال التالي: هل المطلوب من المسلم اليوم أن يقرأ كل التفاسير لفهم أية معينة أم ينبغي أن يكون لدينا منهج محدد لفهم القرآن والسنة يتيح حسن التطبيق والممارسة بعيدا عن الانتحال و الغلو و التأويل الفاسد الذي طرحته بعض المدارس الفكرية السابقة

لقد استطاع علماء السلف أن يؤسسوا علم أصول الفقه لاستنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة وذلك ثمرة جهد جماعي ليسد احتياجات الأمة, في حين يقع على علماء اليوم مسؤولية تأسيس منهج علمي موحد وواضح لفهم القرآن والسنة لإخراج الأمة من حالة الصراع الفكري والفقهي , محاولين بذلك موائمة عصر المنهجية العلمية وإعطاء المسلم القدرة للتعامل مع القرآن بسهولة و فعالية وتمكينه من تحديد رؤية حضارية شاملة حول طبيعة الكون والإنسان والحياة.

2– فسالت أودية بقدرها:

التراث الإسلامي هو ثمرة جهد بشري تركه كوكبة من الفقهاء والمفسرين والمحدثين والأدباء والمربين يبرز قدرتهم على الفهم والاجتهاد انطلاقا من المصدرين الكتاب والسنة ، لكن تحول اليوم عند الكثير من المدارس والحركات إلى أحكام مطلقة وآراء مقيدة للفهم والعطاء من جديد, و يعود السبب الرئيسي في ذلك إلى النظرة المقدسة للسلف نتيجة صلاحهم وإنتاجهم دون التساؤل عن كيفية وصولهم إلى هذا المستوى من الإبداع والإنتاج , لذلك لم يستطع المسلم اليوم أن يرتقي إلى مستوى الدرس والتحصيل, واتجه البعض إلى محاولة حل المشكلات الراهنة من التراث والتقليد دون إدراك الاختلاف بيننا وبين السلف من حيث البيئة والثقافة والمدنية وطبيعة الأعداء والأزمات .ومن جهة ثانية يحتاج هذا التراث الهائل إلى التصنيف والتنظيم والتطوير وفق مناهج العلوم الحديثة التي تميز هذا العصر مع الاحتفاظ بخصوصياتنا في بعض المجالات الأساسية, والى ذلك أشار ابن الجوزي بقوله:<< من أعمل فكره الصافي دله على طلب أشرف المقامات, ونهاه عن الرضى بالنقص في كل حال وقد قال أبو الطيب المتنبي :

ولم أرى في عيوب الناس عيبـــا كنقص القادرين على التمام

فينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه، فلو كان يتصور للآدمي صعود السماوات لرأيت من أقبح النقائص رضاه بالأرض. ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد رأيت المقصر في تحصيلها قي حضيض, غير أنه إذا لم يمكن ذلك فينبغي أن يطلب الممكن. والسيرة الجميلة عند الحكماء : خروج النفس الى غاية كمالها الممكن لها في العلم والعمل >>

كما نصحك أبو العلاء المعري بقوله : وان كنت أنا الآخر زمانه لآت بما لم تأتي به الأوائل

3 – لكن احتل السيل زبدا رابيا:

كيف يفكر العقل المسلم إزاء المشكلات الراهنة مثل انفصام الشخصية والإباحية الأخلاقية والتخلف والاستبداد والتبعية ....الخ ؟، يقول الأستاذ جودت سعيد : << في شباب العالم الإسلامي من عندهم استعداد لبذل أنفسهم وأموالهم في سبيل الإسلام, ولكن قل أن تجد فيهم من يتقدم ليبذل سنين من عمره ليقضيها في دراسة جادة , لينضج موضوعا , أو يصل به إلى تجلية حقيقة , مثلا كمشكلة الانفصال الذي يعيشه المسلم بين سلوكه وعقيدته , إذ كثير من الأسئلة التي تطرح ولا جواب شافيا لها , مع أنه لا يمكن التغيير من وضع إلى وضع , إلا بعد إجابة موضوعية عن هذه الأسئلة , ولا يمكن ذلك إلا بعد التحصيل والدرس . والسبب في بطء نمو الدراسات من هذا النوع , هو أنه لم تكشف قيمة الدراسة في الوسط الإسلامي , الذي ظل وقتا طويلا يرى ، السيف أصدق إنباء من الكتب ولم يكن اتجاهه إلى أن الرئي قبل شجاعة الشجعان >> .

إن العقل المسلم ينتهج منطق التبسيط أو الاستحالة إزاء هذه القضايا مما يدفعه اجترار مقولات أضرت بعقول البشر لمدة طويلة من الزمن مثل مقولة:" حكم جائر أفضل من رعية فاسدة " أو الانغماس في أجلاب ثقافية لا تقيم نهضة و لا تقدما مثل الفلكورات الشعبية وحلقات المداحين , أو الانزواء إلى نزعة دينية معتزلة للحياة كما يقول

الأستاذ مالك بن نبي :" حين يصبح الإيمان إيمانا جذبيا دون إشعاع أعني نزعة فردية فان رسالته التاريخية تنتهي على الأرض إذ يصبح عاجزا عن دفع الحضارة وتحريكها ,انه إيمان رهبان يقطعون صلاتهم بالحياة ويتخلون عن واجباتهم ومسؤولياتهم كأولئك الذين لجؤوا إلى صوامع المرابطين منذ عهد ابن خلدون "

وأكثر من ذلك يتميز واقعنا بحالة الانفصال بين الفكرة والعمل فإما فكرة لا تتحقق أو عمل لا يستند إلى أي فكرة, كحالة الانفصام الذي يعيشه المسلم بين الإيمان والواقع, أو كظاهرة الامتداد العمراني في بلادنا الذي لا يستند إلى أي رؤية حضارية , كيف نفسر تفاقم ظاهرة الطلاق في مجتمعنا رغم وجود الكتاب والسنة بين أيدينا و دون الاستفادة من التراث الإسلامي الهائل الذي تركه علماؤنا , وكيف نفسر غياب إستراتيجية واضحة للتنمية والإنتاج في كل القطاعات ؟

3 – فاستعاضوا بماء الدلاء :

لقد كان لانهيار الخلافة العثمانية و سقوط العالم العربي والإسلامي تحت الاحتلال الأوروبي دليل بالغ على

وجود أزمة فكرية وأخلاقية وعلمية يعيشها الإنسان

المسلم سماها الأستاذ مالك بن نبي بالقابلية للاستعمار حيث فقد بموجبها القدرة على التفكير و الإبداع و الإنتاج والفعالية , وأبعد من ذلك ذهب الفكر الاستشراقي إلى محاولة إعادة تشكيل العقل المسلم وفق المنهج العلمي الغربي وأبرزها كتاب الدكتور جب بعنوان :<< الاتجاهات الحديثة في الفكر الإسلامي >> الذي وصف فيه العقل المسلم بالخاصية الذرية أي العقل الذي يفكر في المشكلات بطريقة منفصلة لا يوجد بينها روابط أو علاقات , كما اتجه الفكر الاستشرقي إلى تأويل النصوص والسير والتاريخ والثقافة لكن غياب النهضة في البلاد العربية أفرز أزمة جديدة متمثلة في إشكالية الاقتباس من الغرب في الثقافة والمعرفة والعلوم والفنون , وانقسم المجتمع إزاء ذلك إلى ثلاث نخب فكرية :

- نخبة فكرية تدعو إلى الاقتباس من الغرب في كل أوجه النشاط الإنساني دون ضوابط لموائبته.

- نخبة رافضة للفكر الغربي بكل محتوياته .

- نخبة تدعو إلى الاقتباس مع تحديد القواعد والضوابط لهده العملية.

هذا الانقسام أدى إلى صراع فكري وسياسي في جميع مجالات الحياة العامة, وطرحت قضايا لم ينتهي النقاش حولها إلى يومنا هذا مثل مسألة الديمقراطية والحكم ومشروع المجتمع والمرأة والتنمية والتربية والثقافة والفنون والتعامل مع الغرب نظرا لغياب الحوار بين النخب وعدم تحديد الأولويات في علمية الاقتباس بالإضافة الأزمة النفسية والفكرية التي يعاني منها البعض .

4 – فأصبحت الأرض جدباء:

يقول الأديب مصطفى صادق الرافعي : << إذا لم تزد شيئا إلى الدنيا كنت زائدا على الدنيا >> , القدرة على الإبداع هي أبرز سمات القادة والعلماء والناجحين عبر التاريخ , ولولا ذلك ما استطاعت الإنسانية أن تتقدم خطوة واحدة نحو الحضارة والتقدم والمدنية المتطورة ، ولا يمكن أن يتحقق الإبداع في بيئة ما إلا إذا توفرت فيها العوامل التالية :

- توفير مناخ الحرية والعدل في المجتمع .
- تشجيع حركة البحث العلمي في المراكز والمؤسسات والجامعات.
- العناية الفائقة بأصحاب المواهب والقدرات العلمية .
- تطوير مناهج التعليم والتدريب في المؤسسات التعليمية .
- تشجيع القراءة والقضاء على الأمية .

فهل يأتي يوما ينضج فيه العقل المسلم ليتحرر من أهوائه وغرائزه ويقوم بتنقية بيئته من الظلم والأنانية والجهل في سبيل وضع خطة سليمة للإبداع و الإنتاج ؟